الفصل الخامس

الترادف والتكرار

التّرادف والتكرار

التكرار عند «ابن رشيق»: «أكثر ما يقع في الألفاظ دون المعاني وهو في المعاني دون الألفاظ أقل، فإذا تكرّر اللفظ والمعنى فذلك الخِذْلانُ بعينه»[1] ولا يجبُ للشاعر أن يكرّر لفظاً إلا إذا كان الموقف يقتضي هذا التّكرار.

ويعدّد ابن رشيق أمثلة متنوعة من الشعر في هذا التكرار اللفظي والمعنوي، ممّا يبيّن أن هذا التكرار له وقعه الجماليّ في النفس إذا كان على سبيل التنويه بمحبوب أو الإشارة إلى ذكره وحبه، أو الإشادة بالممدوح، وبيان فضله وجوده وكرمه، من ذلك قول أبي الأسد يمدح «فيضا»:

ولائمة لامَتْك يا فَيْضُ في النّدى ... فقلتُ لها: هل يقدَحُ اللومُ في البحر؟

أرادتْ لتَثْني الفَيْضَ عن عادة النّدى ... ومن ذا الّذي يَثْني السّحاب عن القَطْرِ؟

كأن وفود الفَيْضِ يَوْم تحمّلوا ... إلى الفَيْضِ لاقوا عِنْده لَيْلَة القَدْرِ

مواقِعُ جُود الفَيْض في كُلّ بَلْدةٍ ... مواقعُ ماء المُزْنِ في البلد القَفْرِ

علق ابن رشيق على هذه الأبيات بقوله:

«فتكريرُ اسم الممدوح ها هنا تنويهٌ به، وإشارةٌ بذكره، وتفخيمٌ له في القلوب والأسماع.

ومن ذلك قول الخنساء:

وإن صَخراً لمولانا وسيّدُنا ... وإنّ صخراً إذا نَشْتو لنحّارُ

وإن صخراً لتأتَمّ الهداةُ به ... كأنّه علمٌ في رأسِه نار[2]

فهذا الذي استشهد به ابن رشيق تكرارٌ يحمل التوكيد في اللّفظ والمعنى.

وقدّم لنا مثلاً آخر وهو التكرار في المعنى دون اللّفظ، وهو ذو علاقة قوية

---

(١) العمدة ٢/٧٣، ٧٤.

(٢) العمدة ٢/٧٤.

بالترادف، بل هو الترادف بعينه، وذلك كقول امرئ القيس:

فيـالَكَ مـن لَيْـلٍ كـأنَّ نجومَـهُ بكـل مُغار الفَتْـل شُـدّت بيذبُـل

كـأن الثُّريّـا عُلّقـت في مَصامهـا بـأمراس كتّـانٍ في صُـمٍّ جَنْـدَلِ[1]

وعلق ابن رشيق على هذين البيتين بقوله:

«فالبيت الأول يغني عن الثاني، والثاني يغني عن الأول ومعناهما واحد، لأن النجوم تشتمل على الثريّا، كما أن «يذبل» يشتمل على صم الجندل.

وقوله: «شدّت بكل مغار الفتل» مثل قوله: «عُلّقت بأمراس كتان» ومن هذا التكرار المعنويّ المختلف لفظاً قول كثيّر:

وإنـي وتَهْيـامي بعَـزّة بعْدمـا تَخلّيْـتُ ممّـا بيننـا وتخلّـتِ

لكـالمُرْتَجِي ظِـلَّ الغمامـةِ كلّمـا تَبـوّأ منهـا للمقيـل اضْمَحَلّـتِ

كـأنّي وإياهـا سـحابةُ مُمْحِـلٍ رجاها فلما جاوزتْـهُ اسْـتَهلّتِ[2]

وعلق ابن رشيق على هذه الأبيات أيضاً بقوله:

«إلاّ أن «كثيّراً» تصرّف، فجعل رجاء الأول ظل الغمامة ليقيل تحتها من حرارة الشمس، فاضمحلّت وتركته ضاحياً، وجعل المُمْحِل في البيت الثّاني يرجو سحابة ذات ماء فأمطرت بعد ما جاوزته»[3].

* * *

(١) من معلقة امرئ القيس.

(٢) انظر ديوان كثيّر عزة / ٧١ ـ دار صادر ـ بيروت.

(٣) العمدة لابن رشيق ٧٨/٢.

التأكيد بالتّكرار لفظاً ومعنًى

وهو ما يُطلق عليه مُصطلح التكرار، فهو توكيد لأنه إعادة الكلمة أو الجملة باللفظ والمعنى معاً، فهو من صميم التوكيد.

وهذا التكرار يشبه التّرادف من حيث إن الترادف اتفاق المعنى واختلاف اللفظ، بمعنى أن اللفظ المكرر مكرّر في المعنى، وليس مُكرّراً في صورة اللفظ الأول، لأن اللفظ الثاني ليس هو اللفظ الأول مع وجود المعنى الواحد في كلا اللفظين.

أمّا التّكرار فهو تكرير المعنى واللفظ معاً، بحيث تكون الكلمة الثانية المكررة هي الكلمة الأولى نفسها، أو الجملة الثانية المكررة هي الجملة الأولى بذاتها.

فهناك علاقة بين التكرار والترادف من حيث إن كُلاً منهما تكرار، كما أن هناك اختلافاً بينهما من حيث إن التكرار هو تكرار اللفظ نفسه أو الجملة ذاتها.

ومن أجل أن تتم صورة التأكيد بخطوطها، وملامحها، ونسيجها نلقي نظرة عاجلة على هذا التكرار في القرآن الكريم، وما يحمله من معان وأسرار.

تكرار اللفظ والمعنى في القرآن الكريم

في حديث ابن رشيق عن التّكرار في اللّفظ والمعنى نَصّ على أن«من المعجز من هذا النّوع قوله تعالى:﴿فبأيّ آلاء ربّكما تكذبان﴾ (١)، كلّما عدّد مِنّةً أو ذكّر بنعمة كرّر هذا»(٢).

وبيان إعجاز هذا التكرار سطّره العلويّ في كتابه «الطّراز» مبيّناً أنّ هذا التكرار له أسرار لا يُدْركها إلاّ ذَوو الأبصار، فالقرآن الكريم نزل بلسان عربيّ مبين، واللسان العربيّ قد يجنح إلى التكرار لما يحتويه من فائدة، ويضمّه من معان، وهو في عرضه لفوائد هذا التكرار في القرآن الكريم يوجه نقده اللاذع لهؤلاء الذي ينكرون التكرار في القرآن، لأن التكرار في نظرهم يخلو من الفائدة، ولا يعطي المعنى الجديد، والتعبير المبدع.

يقول العلويّ: «ومن أجل ورود التأكيد من جهة اللفظ والمعنى والتكرير في كتاب الله تعالى ظنّ بعض من ضاقت حوصلته، وضعفت بصيرته عن إدراك الحقائق، أنه خالٍ من الفائدة وأن لا معنى تحته إلا مجرد التكرير لا غير. وهذا خطأ وزلل، فإن كتاب الله تعالى لم يبلغ حدّ الإعجاز في البلاغة والفصاحة سواه من بين سائر الكلمات.

ولو كان فيه ماهو خال عن الفائدة بالتكرير لم يكن بالغاً هذه الدرجة، ولا كان مختصّاً بهذه المزيّة، وأيضاً فإن سائر الكلمات التي هي دونه من الرتبة قد يوجد فيها التكرير مع اشتمالها على الفائدة، فكيف هو ؟

---

(١) الرحمن: ١٣ وغيرها.

(٢) العمدة لابن رشيق ٢/٧٨.

ونحن الآن نعلو ذِرْوَةً لا يُنال حَضِيضُها في بيان معاني الألفاظ المكرّرة في لفظها ومعناها في كتاب الله تعالى.

وتُظهر أنّها مع التكرير أن تكريرها إنما كان لمعانٍ جزلة، ومقاصد سنيّة. بمعونة الله تعالى»[1]، ثم ذكر نماذج متعدّدة من هذا التكرير[1].

(١) الطراز ٢/١٧٧، ١٧٨.

أوّلاً - نماذج من الألفاظ والمعاني المكرّرة للتوكيد

١- قوله تعالى: ﴿فبأيّ آلاء ربكما تكذبان﴾[١].

قال العلويّ: «فهذا تكريرٌ من جهة اللّفظ والمعنى».

ثم بيّن السّرّ في هذا التكرير، والغرض منه، والهدف من إيراده، فقال: «ووجه ذلك أن الله تعالى إنما أوردها في خطاب الثّقَلَيْن، الجنّ والإنس، فكل نعمة يذكرها، أو ما يؤول إلى النعمة فإنه يُرْدفها بقوله: ﴿فبأيّ آلاء ربكما تكذبان﴾ تقريراً للآلاء، وإعظاماً لحالها»[٢].

ويوضّح الألوسيّ هذه الآلاء والنّعم التي غمر الله بها عباده إنْساً أو جنّاً، ومع ذلك فإنهم لم يعملوا بمقتضى هذه النّعم، فكذّبوا بها وأعرضوا عنها، فساق القرآن الكريم هذه الآلاء والنّعم مكرّرة بعد كل نعمة من النّعم بأسلوب التنكير والتشديد والتوبيخ من أجل أن يرتدعوا، ويتوبوا إلى الله صاحب النّعم ومصدر الفضل.

يقول الألوسيّ: «الخطاب للثّقَلين لأنهما داخلان في النّعم.

والفاء لترتيب الإنكار والتوبيخ على ما فصّل من فنون النّعماء وصنوف الآلاء الموجبة للإيمان، والشكر حتماً.

والتّعرض لعُنوان الرّبوبيّة المنبئة عن المالكيّة الكليّة، والتربية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد التنكير، وتشديد التوبيخ.

ومعنى تكذيبهم بشيء من آلائه تعالى كفرهم به، إمّا بإنكار كونه منه عزّ وجلّ مع عدم الاعتراف بكونه نعمة في نفسه لتعليم القرآن، وما يستند إليه من النّعم الدينيّة، وإمّا بإنكار كونه منه تعالى مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه كالنّعم الدُّنْيويّة الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره سبحانه استقلالاً أو اشتراكاً صريحاً أو دلالة، فإن إشراكهم لآلهتهم به تعالى في العبادة من دواعي إشراكهم لها به - تعالى - فيما يوجبها.

---

(١) الرحمن:١٣ وغيرها.

(٢) الطراز ٢/١٧٨.

والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب لما أنّ دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان، والشكر شهادة منها بذلك، فكفرهم بها تكذيب لا محالة، أي فإذا كان الأمر كما فصّل فبأي فرد من أفراد نعم مالككما و مربيكما بتلك النعم تكذبان مع أن كُلاً منها ناطق بالحق، شاهد بالصّدق»[1].

والناظر إلى هذه الآية المتكررة يجد أنها جاءت في مقامات مختلفة ومواقف متعدّدة، وكلها مقامات تشير إلى عظمة الخالق، وقدرته في إبداع الأشياء، وجاءت هذه الآية عقب كل قدرة، وبعد كل نعمة لتؤكد أنها آلاء كثيرة، ونعم عظيمة، لا ينكر أي لون منها أو أي فرد من أفرادها إلا جاحدٌ كفور.

من الآيات العظيمة التي تضمنتها سورة الرحمن السفن الجارية في البحار كالأعلام، والأعلام هي الجبال، فقدرة الخالق جعلت هذه الجواري المنشآت في البحر تسير على ماء رِخْو يحملها من مكان إلى مكان، ومن ناحية إلى ناحية، لا تسقط في البحار والمحيطات لأنها محفوظة بقدرة الله، وهذه نعمة، فمن يكذب بها؟ وهي واضحة للعيان، وجاءت ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾ لتقرع آذان الصم ليسمعوا، وتدق على القلوب المتحَجِّرة لتذوب، وتسلط أشعتها على العيون العمي لتبصر.

يشير إلى ذلك ابن أبي الأصبع المصري في باب «المبالغة في الصفة» فيقول:

«ومنها إخراج ما لا قوّة له في الصّفة إلى ما له قوة في الصّفة كقوله تعالى:﴿**وله الجوار المُنشآت في البحر كالأعلام**﴾ [2].

وهذا بيان إخراج ما لا قوة له من الصّفة إلى ما له قوة في الصّفة، وقد اجتمعا في العظم إلاّ أن الجبال أعظم، ولهذا جاءت مشبهاً بها، وفي ذلك العبرة من جهة قدْرة من سخّر الفلك الجارية على الماء مع عظمها ولطفه، وما في ذلك من انتفاع الخلق بحمل الأثقال، وقطعها الأقطار البعيدة في المسافة القريبة، وما يلازم ذلك

---

(١) تفسير الألوسيّ ٢٧ /١٠٤.

(٢) الرحمن: ٢٤.

تسخير الرّيّاح للإنسان، فتضمّن ذلك منّاً عظيماً من الفخر، وتعداد النّعم على العباد»[1].

وفي موقف آخر تتبيّن القُدرة في أوضح صورها، وأكمل معانيها حينما ينفح في الصور فتموت الخلائق، وهذه سُنّة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فالفناء يشمل كل شيء، ويغطي بجناحه كل حيّ، وفي أتون هذا الفناء الذي لا يبقي ولايذر يبقى الله وحده ذو العظمة، وذو الجلال والإكرام.

فالقارئ لقوله تعالى:﴿كُلّ مَنْ عليها فانٍ، ويَبْقَى وَجْهُ رَبِّك ذو الجَلالِ والإكرامِ﴾ [2].

يشعر بالتّعبير البلاغي بين الفناء والبقاء، فالفناء من طبيعة المخلوق، والبقاء لله وحده.

وجاءت آية﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ بعد هذا التّصوير البليغ لتشعر القارئ أو المستمع بالعزاء، لأن لا بقاء لأحد وبالفخر والعظمة لله وحده الذي لا سلطان لأحد عليه.

يقول ابن أبي الأصبع: في باب «الافتنان الذي يعرفه بأنه «أن يفتنّ المتكلّم فيأتي في كلامه بفنّين إمّا متضادين أو مختلفين أو متفقين:

«وقد جاء في الكتاب العزيز من هذا الافتنان نوع غريب، وهو الجمع بين التّعزية والفخر، وذلك في قوله تعالى:﴿كل من عليها فان، ويَبْقَى وجْهُ ربك ذو الجلال والإكرام﴾ فإنه سبحانه عزّى جميع المخلوقات من الإنس والجنّ، وسائر أصناف الحيوانات، وكل من مشى على الأرض من كل قابل للحياة وملائكة السموات.

وتمدّح بالانفراد بالبقاء بعد فناء الموجودات في عشر لفظات، ومع وصفه ـ سبحانه ـ بالجلال والإكرام، وحقّ له ذلك سبحانه»[3].

---

(١) بدائع القرآن: ٥٩.

(٢) الرحمن: ٢٦،٢٧.

(٣) بديع القرآن: ٢٩٩.

ويشيد ابن أبي الأصبع بالبلاغة القرآنية في تكرار ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ويبين أنها في سورة الرحمن جاءت لتؤكد معنى الآية أو الآيات التي قبلها، والمتّصلة بها مع أن ما قبلها كامل المعنى، فيقول: في باب التوأم من كتابه: «بديع القرآن» ويعنى بالتوأم في مجال النثر «أنه إذا اقتصر فيه على السجعة الأولى كان الكلام تاماً مفيداً، وإن ألحقت بها السجعة الثانية، كان في التمام والإفادة على حاله مع زيادة مَعْنى ما زاد من اللفظ».

يقول: «وقد جاءت من هذا الباب معظم سورة الرحمن كقوله تعالى فيها: ﴿يا مَعْشَرَ الجنّ والإنس إن استَطَعْتم أن تَنفُذوا من أقطارِ السّمواتِ والأرضِ فانفُذوا لا تنفذون إلاّ بسلطان ◆ فبأي آلاء ربكما تكذبان ◆ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ◆ فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[1]، وهكذا إلى آخر السّورة.

فإن الكلام لو اقتصرنا فيه على أول الفاصلتين دون الثانية - لو كان التنزيل كذلك - لكان الكلام تاماً مفيداً.

وبتكميل الكلام بالفاصلة الثانية يفيد معنى زائد على معنى الكلام الذي خرج مخرج تجاهل العارف للاستفهام فيه عمّا هو معلوم لقَصْد التوبيخ بعد تعديد النعم والتحذير من حلول النّقم، فكانت الفاصلة الأولى في غاية التمكين، والثانية متضمّنة إيغالاً حسناً جاء مقترناً بتجاهل العارف.

وقس على ذلك ما تلحظه مثله من سور القرآن، والله أعلم»[2].

ولا يفوتنا أن نذكر أن الإسكافيّ تعرّض لهذه الآية الكريمة المتكرّرة، مبيّناً عدد المرّات التي تكرّرت فيها، والفائدة من هذا التكرار فبدأ كعادته بالتساؤل الذي يثير الرّغبة في الوصول إلى الجواب لتهدأ النفس بوصولها إلى الصّواب.

تساءل فقال: «للسائل أن يسأل عن العدّة التي جاءت عليها هذه الآية متكرّرة

---

(١) الرحمن: ٣٣ - ٣٦.

(٢) بديع القرآن: ٢٣٢، ٢٣٣.

وعن فائدتها؟

والجواب: أن يقال: نبَّه الله تعالى على ما خلق من نِعَم الدنيا المختلفة في سبع منها.

وأفرد سبْعاً للترهيب والإنذار، والتخويف بالنار.

وفصل بين السبع الأول، والسبع الآخر... بثلاث آيات سوَّى فيها بين الناس كلهم فيما كتب الله من الفناء عليهم حيث يقول:

﴿كُلّ مَنْ عليها فان﴾ (١)، أي مَنْ على الأرض. وهذه الفاصلة للتسوية بين الملائكة، وبين الإنس والجن في الافتقار إلى الله تعالى، وإلى المسألة، والإشفاق من خشية الله، وهي قوله:﴿يسأله مَنْ في السّموات والأرض كلّ يوم هو في شأن﴾(٢).

وإنما كانت الأولى سبعاً، لأن أمّهات النّعم التي خلقها الله سبعاً سبعاً كالسّموات والأرضين، ومعظم الكواكب.

وكانت الثانية سبعاً، لأنها على قسمة أبواب جهنم لما كانت في ذكرها.

وبعد هذه السّبع ثمانية في وصف الجنان وأهلها على قسمة أبوابها.

وثمانية أخرى بعدها للجنّتين اللّتيْن دون الجنّتين الأوليتين، لأنه قال تعالى في مفتتح الثمانية المتقدمة:﴿ ولِمَنْ خاف مقام رَبّه جنتان﴾(٣)، فلما استكملت هذه الآية ثماني مرّات قال:﴿ ومِنْ دُونِهما جنّتان﴾(٤)، فمضَتْ ثمانيةٌ في وصف الجنّتين وأهلها،وثمانية في وَصْف جنتين دونهما للثمانية المتقدمة إليه، فكان الجميع إحدى وثلاثين مرّة» (٥).

٢- ومن ذلك في سورة القمر في قوله تعالى:

﴿ولقد يَسَّرْنا القرآن للذّكر فَهلْ من مُدّكر* كذبت عادٌ فكيْف كان عذابي

---

(١) الرحمن: ٢٦.

(٢) الرحمن: ٢٩.

(٣) الرحمن: ٤٦.

(٤) الرحمن: ٦٢.

(٥) درّة التنزيل وغرة التأويل: ٤٦٣، ٤٦٤.

ونُذر﴾[1].

قال العلويّ: «وإنما كرّره لما يحصل فيه من إيقاظ النفوس بذكر قصص الأولين، والاتّعاظ بما أصابهم من المَثُلات، وحلّ بهم من أنواع العقوبات، فيكون بمنزلة قَرْع العصا لئلا تستولي عليهم الغفلة، ويغلب عليهم الذهول والنسيان»[2].

وقد أثار الإسكافي سؤالاً حول ابتداء قِصّة عاد في سورة «القمر» بقوله تعالى: ﴿فَكَيْف كان عَذابِي ونُذُر﴾، وتكريره في آخرها، وقصة عاد انفردت بهذه الظاهرة في هذه السّورة.

قال الإسكافيّ: وقد سُئِل عن ذلك بَعْضُ أهل النظر.

فأجاب بأن الأول ليس هو تَحْقِيقاً لعادٍ، وأن الثاني لها، فلا يكون تكريراً، إذْ جعل كُلّ واحدٍ من الخبرين خَبَراً عن غير ما أُخْبِر في الآخر.

وهذا الذي ذهب إليه لا وجه له، لأنه قال:

﴿كذّبت عاد فكيف كان عذابي ونُذُر ۞ إنا أرسلنا عليهم﴾ فلا يصلح أن تدخل «الفاء» في قوله: فكيف[3] عقب إخباره عن عاد بأنها كذبت ؟ ثم يصرف عن أن تتعلّق به تعلّق الجزاء بالشرط.

هذا و لم يتقدّم في السّورة سوى قصّة نوح وقومه، وقد عقب بقوله: ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدّكر ۞ فكيف كان عذابي ونُذر ۞ ولقد يَسّرْنا القُرآن لِلذّكْرِ فهل من مدّكر﴾[4].

وهذا الّذي ذهب إليه مَنْ ذكرنا قوله لا يصح، إلاّ أن يراد كذبت عاد فلم يعتبر ﴿كَيْف كان عذابي ونُذُر﴾ ولمن كذّب قبلهم من قوم نوح ويكون ذهاباً عن الظّاهر إلى إضمار لا دلالة عليه».

---

(١) القمر: ١٧، ١٨.

(٢) الطراز ٢/١٧٨.

(٣) في الأصل: «فكان» مكان «كيف»: تحريف لا يدل عليه الأسلوب.

(٤) القمر: ١٥، ١٦، ١٧.

وبعد أن نقد الإسكافي هذا الرّأي بحجج قويّة، وأدلّة متينة أجاب هو عن هذا الإشكال بقوله:

«والجواب عن ذلك من وجهين:

أحدهما: أن يقال: إن عاداً اختصّ ما نزل فيها من كتاب الله بذكر عذابَيْن لها.

قال الله تعالى:﴿لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذَابُ الآخرة أَخْزى وهم لا يُنْصَرُون﴾[1]، فـ«كيف» الأول لعذاب الدنيا والثاني لعذاب الآخرة، ويكون قوله في الثاني: «كيف كان» يحتمل وجهين:

أحدهما: أن تجري مجرى أصحاب:﴿ونادى أصحابُ الأعراف﴾[2]هو أن ما حقّ من وعيد الله هو كالكائن الواقع لصحّته، فيخبر عن مستقبله كالإخبار عن ماضيه لا ستوائهما في زوال المزيّة عن وجودها.

والثاني: أن يكون المعنى في الأوّل: «فكيف كان» ما قدمت إليها من الوعيد الذي صحّ شطره، وهو وعيد الدنيا، ودلّ على وقوع ما في الأخرى كما وقع في الأولى.

والجواب الثاني:أن يكون المعنى في الأوّل، فكيف كان وعيد عذابي ونُذُر لما حذّرناهم قبل أن أوقعنا بهم، ويكون الثاني بعد إرسال الرّياح عليهم، وإيقاع العذاب بهم.

والمعنى كيف كان عذابي محقّقاً، ونذيري مصدّقاً، ويسلم من التكرار» [3].

٣- من سورة «المرسلات»:

قوله تعالى:﴿ويلٌ يومئذ للمكذّبين﴾[4]، فقد تكرّرت هذه الآية عقب مواقف مختلفة.

---

(١) فصّلت: ١٦.

(٢) الأعراف: ٤٨.

(٣) درة التنزيل، وغرة التأويل: ٤٥٩، ٤٦٠.

(٤) المرسلات: ١٥، وغيرها.

قال العلويّ: وإنما كرّر ذلك، لأنه لما ذكر يوم القيامة وأنه كائن لا محالة، ثم عدّد هذه الأمور كلها، وأنها كالدّلالة عليه وما من واحد منها إلاّ ويُعقبها بقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ مبالغة في الإنكار عليهم، وتأكيداً لوقوع السّخط والغضب لأجل تكذيبهم، وحذاراً عن الإتيان بمثل ما أتَوْا به من إنكار هذا اليوم العظيم».

ويعقب العلويّ على هذا التكرار الذي تعدّد مرات كثيرة بقوله: «وهكذا القول فيما ورد من الآيات المكرّرة، فإنها لم تتكرّر إلاّ لمقصد عظيم في الرّمز إلى ذلك المعنى الذي سيقت من أجله، فَلْيَحُكّ الناظر قَلْبه في إدراك تلك اللّطائف، وليجعلها منه على بال وخاطر، ولا يتساهل في إحرازها، فيلمحها بمؤخر عينه، فإنها مشتملة على أسرار ورموز، ومن أحاط بها فقد أوتي من البلاغة مفاتيح الكنوز» (١).

«ويل»: «مصدر بمعنى هلاك، ورفع على الابتداء للدلالة على ثبات الهلاك، ودوامه للمدعوّ عليه، و «يومئذ» ظرفه أو صفته، فمسوّغ الابتداء به كَونه للدّعاء»(٢).

هذا وقد تناول الإسكافيّ هذا التكرار بقوله:

«وللسائل أن يسأل عن هذه الآية: لِمَ كُرّرت عشر مَرات، وتخصيص ما بعد كل منها بما قرن إليها، والفائدة في تقديم ما بعد الأولى على ما بعد الثانية، ثم السؤال في الجميع على هذه الطريقة ؟

والجواب أن يقال: إن هذه السّورة مقصورة على إثبات ما أنكره الكفّار من البعث، والإحياء بعد الموت، والحساب والثّواب، والعقاب، وتخويف المكذّبين به، ليرجعوا عنه ويتمسّكوا بالحقّ دونه.

فأقْسَم في أوّل السّورة بما أقسم ﴿ إنّما تُوعَدون لواقعٌ ﴾ (٣).

في يوم الفصل بين المحسن والمُسيء، والعاصي والمطيع، واحتجّ على المكذبين

---

(١) الطراز ٢/١٧٨، ١٧٩.

(٢) تفسير الألوسيّ ٢٩ /١٧٣.

(٣) المرسلات: ٧.

فيما بين ثلاثة من المتكرّرات بما يحجّهم بعد قوله:﴿وما أدراك ما يَوْمُ الفَصْل * وَيْلٌ يومئذ للمكذّبين﴾ (١) أي ويلٌ لمن كذّب بيوم القيامة،وهو اليوم الذي يُفْصل فيه بين المحسن والمسيء بأعظم المثوبة، وأشدّ العقوبة، وبدأ بعد إيجاب الويل في الآخرة لمن كذّب بها بذكر من أهلك من أمم الأنبياء الأوّلين كقوم نوح وعادٍ وثَمُود، ثم أتبعهم الآخرين الذين أهلكوا من بعدهم قوم إبراهيم وقوم لوط، وأصحاب مدين، وآل فرعون وملّته.

ثم توعّد المجرمين من أمّة محمد ﷺ وأنهم يلحقون بأمثالهم إذا استمرّوا في التكذيب على مثالهم، فكان ذلك زجْراً بالغاً بما صحّ عندهم من إخبارهم، كما قال تعالى:﴿أَلَمْ يَأْتِهم نبأُ الّذين من قَبْلِهم قَوْمِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ﴾ (٢)، فحذّرهم نكالاً يقع بهم كما يقع بمن عمل مثل أعمالهم، فقال بعد ذلك:﴿وَيْلٌ يومئذ للمكذبين﴾ لمن كذب بالآخرة بعد أن احتجّ عليه من هذه الآية بإهلاك الأمة بعد الأمة، وإنهم على إثرهم في الهلاك إن أقاموا على الإشراك.

ثم احتج عليهم في الثانية بقوله:﴿ ألم نَخْلقكم من ماء مهين﴾(٣)، أي جعلنا أشرف ما تشاهدون من أقلّ ما تعرفون، وهو النطفة التي أقرّها في الرّحم،ونقلها حالاً بعد حال حتى بلغ حدّ التّمام والكمال، استواء جوارح، وَوَصْل مفاصل، وأجرى هذا التقدير من جميع ما يولد من الحيوان، وخلق فيهم مجاري أغذيتهم ومشارب القوة المستفادة من أكلهم، فدل بما نبه عليه من النشأة في الابتداء على النشأة الثانية للانتهاء، فقال: ويل لمن كذّب به بعد لزوم الحجّة له.

ثم احتج عليهم في الثالثة بقوله:﴿ألم نَجْعل الأرض كفاتاً﴾(٤)، أي جعلناها تضمّ أحْياءهم وموتاهم بما تخرج من أقواتها كما قال:﴿مِنْها خلقناكم وفيها نُعِيدُكم ومنها نُخْرِجُكم تارة أخرى﴾(٥).

---

(١) المرسلات: ١٤، ١٥.

(٢) التوبة: ٧٠.

(٣) المرسلات: ٢٠.

(٤) المرسلات: ٢٥.

(٥) طه: ٥٥.

هذا مع ما أقام فيها من الجبال الثوابت الرفيعة التي هي أوتاد الأرض، وما أجري فيها للحيوان من الماء العذب.

وفي كل ذلك دليل على أنه قادر عليم، وصانع حكيم، لم يخلق الناس عبثاً، ولم يتركهم سدىً، وهو كما يبدئ يعيد ليحق منه الوعد والوعيد»... وأخذ الإسكافي يستطرد في معاني هذه الآيات التي تعقبها آية الويل، وبيّن ثلاثاً من هذه الآيات مقصورة على التبكيت، لأنهم كذبوا وافتروا وهذه الآيات هي:

١-﴿انطَلِقوا إلى ما كنتم به تُكَذّبون﴾ (١).

٢-﴿هذا يَوْم لا يَنْطِقون﴾ (٢).

٣-﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين﴾ (٣).

إلى أن قال: وبقيت أربعة:

أولها: وصف أهل الجنة...

وبعد الثّاني: خطاب لِمَنْ في عصر الرسول ﷺ، ومبالغة في زجرهم، وأنهم في إيثارهم العاجلة الفانية على الآجلة الباقية من جملة المجرمين الذين قال فيهم عند مفتتح هذه الآية: ﴿كذلك نفعل بالمجرمين﴾ (٤) فرجع عجز الكلام إلى صدره كقوله: ﴿كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون﴾ (٥).

ومضى الإسكافيّ في استطراده، فذكر أن بعد الثالث كارهون للركوع، وبعد الرابع: أنهم لم يؤمنوا بالقرآن المُتضَمّن لوجوب الصّلاة، وبذل غاية الخضوع بالسّجود والركوع.

ثم قال: ومعنى قوله: «اركعوا أي صَلّوا، ثم قال بعد ذلك: «وإنما كان

---

(١) المرسلات: ٢٩.

(٢) المرسلات: ٣٥.

(٣) المرسلات: ٣٨.

(٤) المرسلات: ١٨.

(٥) المرسلات: ٤٦.

قوله: ﴿ويلٌ يَوْمئذٍ للمكذّبين﴾ ردف كلام يدل على ما يجب تصديقه، وترك التكذيب به، وكانت المعاني مختلفة فسلم من التكرار.

وعلى الترتيب الثاني الذي بيّنا يتبيّن ما يختص بالتقديم مما يختص بالتأخير»[1].

وعلى هذا النسق سار الإسكافي في كتابه يبيّن في بعض المواطن أن التكرار له عظيم الفائدة، وفي بعض المواطن يحلل النصوص المتكررة في ظاهرها ليثبت أنه لاتكرار بينها، فلكل آية معناها، وحينما تردف بالآية الكريمة ﴿وَيْلٌ يومئذ للمكذبين﴾ تكوّن بهذا الترادف وحدة متكاملة، وتعبيراً يدل على معنى يلتحم مع الآية المتكرّرة.

* * *

(١) درة التنزيل وغرّة التأويل: ٥١٢-٥١٥.

ثانياً: آيات في ظاهرها التكرار وليست مكرّرة في الحقيقة

من هذه الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿ويُريد اللهُ أن يُحِقّ الحقّ بكلماته وَيَقْطَع دَابِر الكافِرين ۞ لِيُحِقّ الحقّ ويُبْطِل الباطِلَ ولو كَرِهَ المُجْرِمون﴾(١).

علّق على هذا التكرار العلويّ بقوله:

«فهذا وإن تكرّر لفظُهُ ومعناه، فلا يخلو عن حال لأجله وقع التّغاير، وذلك من وجهين:

أمّا أوّلاً، فلأن الأوّل واردٌ على جهة الإنشاء، والثاني وارد على جهة الخبر.

وأمّا ثانياً فلأن الأول واردٌ في الإرادة، والثاني وارد في الفعل نفسه.

ولأن الأوّل الغرض به إظهار أمر الّذين قاموا بنُصْرة الرسول ﷺ بقتْل من ناوأهُ، ولهذا قال بعده: ﴿ويَقْطع دابِرَ الكافرين﴾.

والغرض بالثاني التمييز بين ما يدعو الرسول ﷺ إليه من التّوحيد، وإخلاص العبادة لله، وبين أمر الشّرْك، وعبادة الأصنام، ولهذا قال بعده: ﴿ولو كَرِه المُجْرمون﴾.

٢- قوله تعالى: ﴿إنّما المُؤْمِنُون الّذِين آمنوا بالله ورسوله﴾(٢).

ثم قال بعد ذلك: ﴿إن الّذين يَسْتَأْذِنُونك أولئك الذين يؤمنون بالله وَرسُوله﴾(٣).

---

(١) الأنفال: ٧، ٨.

(٢) النور: ٦٢.

(٣) الآية نفسها.

قال العلويّ: «ظاهر هذه الآية التكرير، وليس الأمر كذلك فإن الحصْرَ وإن كان شاملاً لهما، لكنه مختلف.

فالآية الأولى إنما وَرَدت في حَصْر الإيمان، وأنه لا إيمان حقيقةً إلاّ الإيمان بالله ورسوله، وماعداهما لا يُعدّ من الإيمان، ولا يكون داخلاً في ماهيّته، وتَعْريضاً بحال مَنْ أنكر التّوحيد والنّبوّة، فإنه غير داخل في هذه الصّفة بحال.

والآية الثانية، فإنما وردت على جهة الحصر في المستأذنين، كأنه قال: صفة الاستئذان مقْصُورة على كُل من آمَن بالله ورسوله، فلا يتأخّر إلاّ بأمْرٍ من جهتك، ولا يُقْدم، ولا يُحْجِمُ إلاّ عن رأيك لاطمئنان نفسه بالإيمان، ورسوخ قدمه فيه، فهذا هو المستأذِنُ حقيقةً، فأمّا من كان غير مؤمن بالله، ولا مُعَرّجٍ على التصديق بك، فليس من استئذانك في وِرْد ولا صَدْر.

فقد ظهر بما ذكرناه تغايرُ الآيتين بما أبْرزْناه من معناهما» (١).

وبعد هذا البيان والتحليل الرائع في الفرق بين الآيتين اللتين تبدوان متكرّرتين علّق العلويّ على ذلك بقوله:

«فهكذا تَفْعل في كلّ ما ورد عليك من الآي القرآنية، فإن التكرير فيه كثير، ورُبّ كلام يكون الإطناب فيه أبلغ من الإيجاز وتصير البَسَاطة له كالعلَم والطّرّاز»(٢).

٣- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**لا أعْبُد ما تعبدُون * ولا أنْتم عابِدُونَ ما أعبدُ * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنْتُم عابِدُون ما أعْبد**﴾(٣).

علّقَ ابن القيّم على هذا التكرار بقوله:

«معناه: لا أعبد في المستقبل ما تعبدون أنتم الآن، ولا أنتم تعبدون في المستقبل ما أنا عابد له، ولا أعبد قطّ آلهتكم حتى أكون عابداً لما تعبدون، ولا أنتم عبدتم قط

---

(١) الطراز ٢/ ١٧٩، ١٨١.

(٢) السابق.

(٣) الكافرون: ٢ - ٥.

إلهي حتى تكونوا له الآن عابدين» [1].

هذا تعليق ابن القيّم، وهو تعليق يدور حول الشرح والتحليل لهذه الآيات المتكرّرة.

وإذا تجاوزنا ابن القيّم إلى ابن قتيبة نجد أن ابن قتيبة إلى جانب إيمانه بظاهرة التوكيد بالتكرار يميل إلى معرفة أسباب النزول، فإن معرفة هذه الأسباب توضّح الأسرار في تكرار التراكيب القرآنية فيقول: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾، لأنهم أرادوه على أن يعبد ما يَعْبدُون، لِيعْبدوا ما يَعْبد، وأبدؤوا في ذلك وأعادوا، فأراد الله عز وجل حَسْم أطماعهم، وإكذاب ظنونهم، فأبدأ وأعاد في الجواب، وهو معنى قوله: ﴿وَدّوا لو تُدْهِن فَيُدْهِنون﴾[2] أي تلينُ لهم في دينك، فيلينون في أدْيانهم، وفيه وجه آخر، وهو أنّ القرآن كان ينزل شيئاً بعد شيء وآية بعد آية، حتى لربّما نزل الحرفان والثلاثة.

قال زيد بن ثابت: كنت أكتُب لرسول الله ﷺ: ﴿ لا يَسْتَوي القَاعِدُون مِنْ المُؤمنين غير أولي الضرر والمُجاهِدُون في سَبيل الله ﴾[3]، فجاء عبد الله بن أم مكتوم، فقال: يارسول الله: إني أُحِبّ الجهاد في سبيل الله، ولكن بي من الضّرر كما ترى.

قال زيد: فثقلت فخذ رسول الله ﷺ على فخذي حتى خشيت أن ترُضّها، ثم قال: اكتب: ﴿ لا يَسْتَوي القاعِدُون مِنَ المُؤمنين غَيْرُ أُولي الضّرر والمجاهدون في سبيل الله ﴾[4] فكأن المشركين قالوا له: أسْلم ببعض آلهتنا حتى نؤمن بإلهك، فأنزل الله: ﴿لا أعْبُد ما تَعْبُدون ● ولا أنتم عابِدون ما أعْبُد﴾.

ثم غَبَرُوا مدّة من المُدد، وقالوا: نعبد آلهتنا يَوْماً أو شهراً أو حولاً، ونعبد إلهك يَوْماً أو شَهْراً أوْ حولاً، فأنزل الله تعالى: ﴿ولا أنا عابِدٌ ما عَبَدْتُم ● ولا أنتم

(١) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن / ١١٢.

(٢) القلم: ٩.

(٣) النساء: ٩٥.

(٤) الآية نفسها.

عابِدُون ما أَعْبُد﴾، على شريطة أن تؤمنوا به في وقت، وتشركوا به في وقت»[1].

ومن خلال تفسير ابن قتيبة نلمس أن هذا التكرار لم يَكُن في زمن واحد أو في موقف واحدٍ، وإنما كان بسبب النّزول الذي اختلف زمنه فحدث التّكرار.

على أن الإمام المرتضى في أماليه تعرّض للتكرار في هذه السّورة وجرّد قلمه لنقد المارقين الطّاعنين على كتاب الله، واعتمد في ردّه وفي تفسيره لهذا التكرار على أدلة مَرْوِيّة، وعلى الحسّ اللّغوي والبلاغيّ الذي يحمله هذا التكرار فماذا قال:

قال المرتضى في أماليه:

«وقد طعن بعض النّاس على هذا التأويل [يعني به تأويل ابن قتيبة] بأن قال: إنه يقتضي شرطاً وحَذْفاً لا يدلّ عليه ظاهر الكلام وهو شَرْطه في قوله: ﴿ولا أَنْتُم عابدون ما أَعْبُد﴾.

قال: [أي الطاعن] وإذا كان ما نفاه عن نَفْسه من عبادة ما يعبدون مطلقاً غير مشروط، فكذلك ما عطف عليه».

ولقد دافع المرتضى عن ابن قتيبة راداً هذا الاعتراض الذي قدّمه الطّاعنون، فقال: «وهذا الطّعن غير صحيح لأنه لا يمتنع إثبات شرط بدليل، وإن لم يكن في ظاهر الكلام، ولا يمتنع عطف المشروط على المُطلق بحسب قيام الدّلالة».

ثم أجاب المرتضى عن هذا التساؤل بثلاثة أجوبة، كل واحد منها أوضح مما ذكره ابن قتيبة.

١- ما حكي عن أبي العباس ثعلب أنه قال: إنما حسن التكرار، لأن تَحْتَ كُلّ لفظة معنًى ليس هو تحت الأخرى.

وتلخيص الكلام: قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون السّاعة، وفي هذه الحال، ولا أنتم عابدون ما أعبد في هذه الحال أيضاً.

فاختصّ الفعلان منه ومنهم بالحال. وقال من بعد:

---

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة / ٢٣٧، ٢٣٨.

ولا أنا عابدٌ ما عبدتم في المستقبل، ولا أنتم عابدون ما أعبد، فيما تستقبلون، فاختلفت المعاني، وحسن التّكرار لاختلافها.

ويجب أن تكون السّورة على هذا مختصّة بمَنْ المعلوم أنه لا يؤمن، وقد ذكر مقاتل وغيره أنها نزلت في أبي جهل والمستهزئين، و لم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد.

والمستهزؤون هم: العاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، والأسود بن المطّلب، والأسود بن عبد يغوث، وعديّ بن قيس.

٢- والجواب الثاني: وهو جواب الفرّاء: أن يكون التكرار للتأكيد كقول المجيب مؤكّداً: بلى بلى، والممتنع مؤكداً: لا، لا، ومثله قوله تعالى: ﴿**كَلاَّ سوف تعلمون ۞ ثمّ كلاّ سوف تَعْلمون**﴾ (١).

٣- والجواب الثالث: - وهو أغربها - أعني لا أعبد الأصنام التي تعْبدونها، ولا أنتم عابدون ما أعبدُ، أي أنتم غير عابدين الله الذي أنا عابده، إذْ أشركتم به، واتخذتُم الأصنام وغيرها معبودة من دونه أو معه، وإنّما يكون عابداً له من أخلص له العبادة دون غيره، وأفْرده بها.

وقوله: ﴿**ولا أنا عابد ما عبدتم**﴾ أي لست أعْبد عِبَادَتكم. و«ما» في قوله: ﴿**ماعَبَدْتم**﴾ في موضع المصدر»(٢).

على أن الإسكافيّ حينما تناول التكرار في هذه السّورة اكتفى في «درة التنزيل» بوجه واحد من وجوهها الكثيرة التي سردها في كتابه «جامع التفاسير».

أما الوجه الواحد الذي ذكره في الدرّة، فقد بيّن فيه أنه لا يوجد تكرار في هذه السورة، فإذا حُلّلَتْ فكرياً ينتفي فيها التكرار.

قال: إن سأل سائل عن التكرار في هذه السورة ؟

فالجواب: أن يقال: إنّا قد أجبنا في «جامع التفاسير» عن ذلك بأجوبة كثيرة،

---

(١) التكاثر: ٣،٤.

(٢) أمالي المرتضى ١/١٢٠ - ١٢٢.

فنذكر منها واحداً في هذا الموضع، وهو أنْ يقال: معناه: لا أعبد الأصنام لعلمي بفساد ذلك ولا أنتم تعبدون الله لجهلكم ما يوجب عليكم، ولا أعبد آلهتكم لتعبدوا الله مناوبةً بيننا، ولا أنتم تَعْبدون الله من أجل أن يكون سبقت منّي عبادة آلهتكم.

وذلك أنّ المشركين قالوا له ﷺ: اعبد سنة ما نَعْبد، ونعبد سنة ما تَعْبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كُلّه.

فقال في الأول: لا يكون منّي عبادة الأصنام لعلمي ببطلانها، ولا تكون منكم عبادة الله لجهلكم بأنه وحده هو الذي يَحَقُّ له العبادة.

وقال في الثاني ما نفى العبادة التي دَعَوْا إليها مناوبةً منهم فلم يقع تكرارٌ على هذا الوجه، ولا على الوجه الآخر»[1].

وهكذا احتدت الآراء حول تكرير هذه الآيات، فمنهم من أنكر التّكرار ومنهم من أثبته، ومن أنكر كان يهدف إلى أن القرآن الكريم، وإن تكرّرَتْ ألفاظه، فتحت كل لفظ معنًى، ووراء كل كلمة سرّ بلاغيّ، ومن لم ينكر جعل التكرار ما هو إلاّ بسط للقول، وتأكيد للمعنى، وتوثيق للهدف الذي سيق التكرار من أجله.

ولا أدل على ذلك من قول ابن الأثير في تعليقه على قوله تعالى:﴿**وإنْ تَعْجَبْ فَعَجبٌ قَوْلُهم أئذا كُنّا تُراباً أئنا لَفِي خَلْقٍ جَدِيد أولئك الّذين كفروا بربّهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون**﴾[2].

قال ابن الأثير: «فتكرير لفظة «أولئك» لمكان شدة النكير وإغلاظ العقاب بسبب إنكارهم البعث، وأمثال هذا في القرآن كثير» [3]. ويسرد لنا ابن الأثير عدة أمثلة من هذا التكرير في اللفظ والمعنى، وعند النظرة الفاحصة، والفهم العميق نجد أن ما كرّر من القرآن الكريم وإن كان المعنى واحداً له غرض مختلف، وهدف مميز، ودلالة معيّنة.

---

(١) درة التنزيل / ٥٣٦.

(٢) الرعد: ٥.

(٣) المثل السائر ٣/١١، ١٢ - مكتبة نهضة مصر بالقاهرة.

فمن هذه الأمثلة:

١- قوله تعالى:﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً له الدِّين * وأُمِرْتُ لأن أَكُون أوَّلَ المُسْلِمِين * قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عذابَ يَوْمٍ عَظِيم* قُلْ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً له دِيني * فاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِنْ دونه﴾[1].

فكرّر قوله تعالى:﴿قل إني أمرت أنْ أعْبُد اللهَ مُخْلِصاً له الدين﴾ وقوله﴿قل اللهَ أعْبُد مُخْلِصاً له ديني﴾. والمراد به غرضان مختلفان وذلك أن الأوّل: إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالعبادة له والإخلاص في دينه.

والثاني: إخبار بأنه يَخُصُّ الله وحده دون غيره بعبادته، مخلصاً له دينه.

ولدلالته على ذلك قدّم المعبود على فِعْل العبادة في الثاني وأخّره في الأوّل، لأن الكلام أوّلاً واقع في الفعل نفسه وإيجاده، وثانياً فيمن يفعل الفعل من أجله ولذلك رتّب عليه:﴿فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾[2].

٢- ومن هذه الأمثلة: قوله تعالى:

﴿إِنّما المُؤْمِنُون الّذين آمنوا باللهِ ورَسُوله وإذا كانوا معه على أَمْرٍ جامعٍ لم يَذْهَبُوا حتى يَسْتَأْذِنُوه إنّ الّذين يَسْتَأْذِنُونك أُولئِك الّذين يُؤْمنون باللهِ وَرسُولِه﴾[3].

وظاهر الأوّل والثاني أنّهما سواء في المعنى، وليس كذلك، لأنّ الثاني فيه تخصيص غير موجود في الأول، ألا ترى أنا إذا قلنا: «زيدٌ الأفضل» وقلنا «الأفضل زيد» كان في الثاني تخصيصٌ له بالفضل، وهذا التخصيص لا يوجد في القول الأول الذي هو «زيد الأفضل»، ويجوز أن تبدّل صفة الفضل فيه بغيرها أو بضدّها، فيقال: «زيد الأجمل» أو «زيد الأنقص».

وإذا قلنا: «الأفضل زيد» وجب تخصيصه بالنّفس و لم يكن تغيير عنه.

---

(١) الزمر: ١١- ١٢- ١٣- ١٤- ١٥.

(٢) المثل السائر ٣/ ٥، ٦.

(٣) النور: ٦٢.

وكذلك يجري الحُكم في هذه الآيات، فإن الله تعالى قال:﴿إنّما المؤمنون الذين آمَنُوا بالله ورسوله﴾ ثم قال:﴿لَمْ يَذْهبوا حتّى يَسْتأذِنُوه﴾، فوصفهم بالامتناع عن الذّهاب إلاّ بإذنه، وهذه صفة يجوز أن تبدل بغيرها من الصّفات، كما قال تعالى في موضع آخر:﴿إنّما المُؤمنون الّذين آمنوا بالله ورسوله ثمّ لم يَرْتابوا﴾[1]، فجاء بصفة غير تلك الصّفة.

ولـمّا قال:﴿إنّ الّذين يَسْتَأذِنُونك أُولَئِك الّذين يُؤمنون بالله ورسوله﴾ وجب تخصيصُهم بذلك الوصف دون غيره.

وهذا موضع حسنٌ في تكرير المعنى»[2].

٣- ومن هذه الأمثلة قوله تعالى:

﴿كذّبت قَوْم نُوحٍ المرسلين * إذْ قال لهم أخوهم نوحٌ ألا تَتّقون * إني لكم رَسولٌ أمِينٌ، فاتّقوا الله وأطيعون * وما أسْألُكُم عليه من أَجْرٍ إنْ أَجْرِي إلاّ على رَبِّ العالمين * فاتقوا الله وأطيعون﴾[3].

فكرّر قوله:﴿فاتّقوا الله وأطيعون﴾ ليؤكّده عندهم، ويقرره في نفوسهم مع تعليق كُلّ واحد منهما بعلّة، فجعَل عِلّة الأوّل كونه أميناً فيما بينهم، وجعل علة الثاني حَسْم طمَعه فيهم وخلوه من الأغراض فيما يدعوهم إليه» [4].

٤- ومن هذا التكرير قوله تعالى:

﴿كذّبت قَبْلَهُم قَوْمُ نُوحٍ وعادٌ وفِرْعونُ ذو الأَوْتاد * وثمودُ وقَوْمُ لُوطٍ وأصحاب الأيكة أولئك الأَحْزابُ * إنْ كُلٌّ إلاّ كذّب الرُّسُلَ فَحقّ عِقاب﴾[5].

---

(١) الحجرات: ١٥.

(٢) المثل السائر ٣ / ٦، ٧.

(٣) الشعراء: ١٠٥ - ١١٠.

(٤) المثل السائر ٣ /٨.

(٥) ص: ١٢ - ١٤.

قال ابن الأثير: «وإنّما كرّر تكذيبهم ها هنا، لأنه لم يأت على أسلوب واحد، بل تنوَّع فيه بضُروبٍ من الصّنْعة.

فذكره أوّلاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام.

ثم جاء بالجملة الاستثنائية، فأوضحه بأن كلّ واحدٍ من الأحزاب كذّب جميع الرسل، لأنهم إذا كذبوا واحداً منهم فقد كذّبوا جميعهم.

وفي تكرير التّكذيب، وإيضاحه بعد إبهامه، والتّنوّع في تكريره بالجملة الخبريّة أوّلاً، وبالاستثنائيّة ثانياً.

وما في الاستثناء من الوضْع على وَجْه التّوكيد والتّخصيص المبالغة المسجّة عليهم باستحقاق أشدّ العذاب وأبْلَغه»[1].

٥- وممّا يجري هذا المجرى قوله تعالى: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم ۞ الحمدُ لله ربّ العالمين ۞ الرّحمن الرّحيم ۞ مالكِ يَوْم الدّين**﴾ [2].

يقول ابن الأثير: فكرّر «الرّحمن الرحيم» مرّتين.

والفائدة في ذلك: أن الأوّل يتعلّق بأمر الدّنيا، والثاني بأمر الآخرة، فما يتعلّق بأمر الدنيا يرجع إلى خَلْق العالمين في كونه خَلَق كُلاً منهم على أكمل صفة،وأعطاه جميع ما يحتاج إليه حتى البقّة والذُّباب، وقد يرجع إلى غير الخَلْق كإدرار الأرزاق وغيرها.

وأما ما يتعلّق بأمر الآخرة فهو إشارة إلى الرّحمة الثانية في يوم القيامة، ذلك هو يوم الدين» [3]، ويعلن ابن الأثير رأيه في وضوح بالنسبة لقضية التكرار اللفظي والمعنويّ، فيقول: «وبالجملة، فاعْلم أنّه ليس في القرآن مكرّر، لا فائدة في تكريره، فإن رأيت شيئاً منه تكرّر من حيث الظاهر،فأَنْعِم نظرك فيه فانظر إلى سوابقه، ولواحقه، لتنكشف لك الفائدة منه»[4].

---

(١) المثل السائر ٣ / ٩.

(٢) الفاتحة: ١-٣.

(٣) المثل السائر٣ / ٧، ٨.

(٤) السابق.

ومن المفكرين الأدباء في عصرنا الحديث الذين تناولوا ظاهرة التّكرار في القرآن الكريم أديب العربيّة، ومفكّرها الناضج مصطفى صادق الرافعيّ، فقد قال في شأن هذا التكرير ما نصّه:

«وقد خفي هذا المعنى [معنى التكرار] على بعض الملاحدة، وأشباههم وممّن لا نفاذ لهم في أسرار العربيّة، ومقاصد الخطاب، والتأتّي بالسياسة البيانيّة إلى هذه المقاصد، فزعموا به المزاعم السخيفة، وأحالوه إلى النقص والوهن.

وقالوا: إن هذا التكرار ضعف وضيق من قوة وسعة، وهو ـ أخزاهم الله ـ كان أرْوع، وأبْلَغ، وأسرى عن الفُصَحاء من أهل اللّغة، والمُتَصرِّفين فيها، ولو أعجزهم أن يجيؤوا بمثله ما أعجزهم أن يعيبوه لو كان عيباً ؟.

وفي بعض ذلك التكرار معنى آخر فطن إليه بعض علمائنا، ولم يُكْشف لهم عن سرّه.

وأوّل من نبّه عليه الجاحظ في كتابه «الحيوان» إذ قال: «ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مَخْرج الإشارة والوحي والحذف.

وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام» أي كأن ذلك مبالغةٌ في إفهامهم، وتوسّع في تصوير المعاني لهم وتلوينها بالألفاظ إيجازاً في موضع وإطناباً في موضع، إذ كانوا قوماً لا سليقة لهم كالعرب، وليسوا في حكمهم من البيان....

فلهذا ونحوه كان لابُدّ في خطابهم من التكرار والبسط والشرح بخلاف العرب، فإن الخطاب يقع إليهم على سنن كلامهم من الحذف والقصد إلى الحجّة، والاكتفاء باللمحة الدالة وبالإشارة الموحى بها وبالكلمات المتوسّمة، وما يجري هذا المجرى»[1].

(١) إعجاز القرآن للرافعي / ١٩٤، ١٩٥.

ثالثاً: تكرار القصة الواحدة أو الخبر الواحد في مواضع مختلفة من القرآن

هناك لون آخر لم يذكر في كتب البلاغة أو اللّغة في باب الترادف، وعند التحليل نجد أن هذا اللّون قريب من الترادف،وفي الوقت نفسه يحمل معنى التأكيد.

حقيقة، إن هذا التكرار لم يكن في موضع واحدٍ كالتكرار الذي ذكرنا نماذج منه سابقاً، بل كان في مواضع مختلفة من القرآن الكريم وفي سُوَر متعدّدة، قد يتباعد بعضها عن بعض.

وهذا التكرار موضع تساؤل: خلاصته: لِمَ كَرّر القرآن الكريم الخبر الواحد أو القصة الواحدة في مواضع مختلفة بالألفاظ نفسها مع اختلاف في بعض الكلمات ؟.

يبدو أن هذه الظاهرة في القرآن الكريم لفتت نظر الخطيب الإسكافيّ فأوقف عليها كتابه: «دُرّة التنزيل وغُرّة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز».

وقد كشف في كتابة أسرار هذا التكرار، وبيان البلاغة فيه وأنه سيق في مقامات مختلفة ليؤكد العبرة من هذه القصص ويوثق الحكمة من هذه الأخبار.

وهذه نماذج من هذه الحكايات أو القصص أو الأخبار:

١- في سورة الأعراف ورد قوله تعالى:

﴿أُبَلّغكُم رِسالاتِ ربّي وأنْصَحُ لكم وأعْلَم من الله مالا تَعْلمون﴾ (١).

وفي السّورة نفسها في موضع آخر:﴿أُبَلّغكُم رِسالاتِ ربّي وأنا لكم ناصِحٌ أمين﴾(٢).

والناظر إلى هاتين الآيتين يجد أن الآية الأولى وردت في قصة نوح والآية الثانية

(١) الأعراف: ٦٢.

(٢) الأعراف: ٦٨.

وردت في قصّة هود، وكلتاهما في سورة واحدة هي سورة الأعراف.

بدأ الإسكافيّ التّعليق على هاتين الآيتين بهذا التساؤل: «للسائل أن يسأل عن الفرق بين قوله: «وأنصح لكم» وبين قوله:«وأنا لكم ناصِحٌ أمين».

وما الذي اقتضى الاسم في الآخر، والفعل في الأوّل وهل كان يصحّ أحدهما مكان صاحبه ؟

وقد أجاب الإسكافيّ عن هذا التساؤل بـ«أنّ قول نوح عليه السّلام جواب مَن ضلّل، لأنه قيل له:﴿**إنا لنراك في ضلال مبين**﴾[1]، وهود عليه السّلام قيل له:﴿**إنا لَنراك في سَفاهة**﴾[2].

والضلال من صفات الفعل، تقول: ضلّ فهو ضالّ.

والسّفاهة من صفات النفس، وهي ضد الحِلْم، وهو معنى ثابت يُولّد الخفّة والعجلة المذمومتين، والحلم معنى ثابت يولّد الأناة المحمودة، فكان جوابُ مَن عيب بفعْل مذموم نفيه بفِعْل محمود، لا بل بأفعال تنفي ما ادّعوه عليه، وهي أن قال: لَسْتُ ضالاً، ولكني رسول من ربّ العالمين، أؤدي إليكم ما تحمّلت من أوامره، وأدعوكم بإخلاص إلى صلاح أمركم، وأعلم من سوء عاقبة ما أنتم عليه ما لاتعلمون،فنفى الضلال بهذه الأفعال.

وهود عليه السّلام لما رُمِيَ بالسّفاهة، وهي من الخصال المذمومة البطيئة وليست من الأفعال التي ينتقل الإنسان عنها إلى أضدادها في الزمن القصير مراراً كثيرة، فكان نفيها بصفات ثابتة تُبْطلُها أولى...

فقوله: ناصحٌ، أي أنا ثابت لكم على النُّصح صفة في النّفس لا تنتقل لكم عن النّصح إلى الغشّ، ولا تتبدّل خيانة بالأمانة.

وكان جواب كُلّ من الكلامين ما لاق به واقتضاه»[3].

---

(١) الأعراف: ٦٠.

(٢) الأعراف: ٦٦ .

(٣) درّة التنزيل وغرّة التأويل: ١٥٢، ١٥٣.

٢- قوله تعالى في سورة الأعراف:

﴿فكذّبوه فأنجَيْناه والّذين معه في الفُلْك وأَغْرقنا الّذين كذّبوا بآياتنا إنّهُم كانوا قوماً عَمِين﴾(١).

وقوله تعالى في سورة يونس:

﴿فكذّبوه فَنجّيناه ومَنْ مَعه في الفُلْك وجَعَلْناهم خَلائِفَ وأَغْرَقْنا الّذِينَ كذّبوا بآياتنا فانْظُر كيف كان عاقِبةُ المُنْذَرِين﴾ (٢).

فهاتان آيتان سيقتا حول قصّة واحدة، وهي قصة نوح عليه السّلام مع قومه، ذكرت هذه القصة في سورة الأعراف، وكرّر ذكرها في سورة يونس.

والسؤال الذي يسأل هنا هو أن يقال:

لم اختُصَّت الآية الأولى بقوله:**﴿أنجيناهُ والّذين معه﴾**، والثانية بقوله:**﴿فنجيناه ومَنْ مَعه في الفُلْكِ﴾** وزاد فيها:**﴿وجَعَلْناهم خلائف﴾**؟

أجاب عن ذلك الإسكافيّ بعد أن قدّم التساؤل السابق بقوله: الجواب أن يقال: السّورتان مكيّتان جميعاً...

وقوله:**﴿أنجيناه﴾** أصل في هذا الباب، لأن أفْعَلْت في باب النّقل أصل لـ«فَعَلْت» وهو أكثر.

تقول: نجا وأنجيته، كما تقول: ذَهب وأَذْهَبْتُه، ودَخل وأدْخلْتُه وخرجَ وأخْرَجْتُه، فأمّا فعلته فمن القلّة بحيث يمكن عدّه نحو فزع وفزّعته، وخاف وخوّفته.

وقد يجاء معه بالهمزة فيقال: أفزعْتُه وأَخَفْتُه.

ولا يجاء مع تشديد العين بالهمزة، لا تقول: ذهّبته ولا دخّلته في: أَذْهَبْته وأَدْخَلْتُهُ، فالآية الأولى جاءت على الأصل الأكثر، ولهذا أكثر ما جاء في القرآن جاء على «أنجينا» كقوله: **﴿فأَنْجَيْناهُ والّذين معه بِرَحْمَةٍ منّا﴾**(٣)، وكقوله: **﴿وأَنْجَينا موسى**

(١) الأعراف: ٦٤.

(٢) يونس: ٧٣.

(٣) الأعراف: ٧٢.

﴿ومَنْ مَعه أَجْمعين﴾[1]، وقوله:﴿فأنجاه الله من النّار﴾[2].

وليست الجيم المزيدة في «نجّيناه» للكثرة، وإنّما هي المعاقبة للهمزة بدليل قوله في ذي النون:﴿فاستَجَبْنا له ونجّيناه من الغَمّ﴾[3] ولا كثرة هناك.

وأمّا قوله:﴿والّذين مَعَهُ في الفُلْك﴾ فهو الأصل ومَنْ تجيء بمعناها وتكونان مُشْتَركتينْ في معانٍ، «والذين» خالصة للخبر مخصوصة بالصّلة، فاستعمل الأصل في اللفظتين «أنجينا» و «الذين» ولمّا كرّر هذا الذّكر كان العدول إلى اللّفظين الآخرين اللّذين هما بمعناهما، وهما: «نجّينا» و «مَنْ» أشبه بطريقة الفصحاء وعادة البلغاء.

فأمّا قوله:﴿وجَعَلْناهم خلائف﴾ في الآية الثانية فإنه زيادة في الخبر عن الخوالف الّذين نَجَوْا من الغَرق، فصاروا خُلَفاء للهالكين.

فإن قال: فالإغراق [4] قبْل أن جُعلوا خلائف فكيف قدّم عليه ؟

قيل: يجوز أن يكون معنى:﴿وجعلناهم خلائف﴾ إنّما قدّم لأنه من صفة:﴿أنجيناهم﴾ فلما أخبر عنهم بذلك ضمّ إليه الخبر الثاني.

ويجوز أن يكون معنى:﴿وجعلناهم خلائف﴾ أي حكمنا لهم بذلك، ثم كان الإغراق بعدهُ على أن الواو لا ترتيب فيها، ولا يمتنع أن يكون المذكور بعدها مقدّماً على ماقبْلها» [5].

٣- ومن الآيات المكرّرة في موضعين من سورتين متباعدتين:

قوله تعالى في سورة «المؤمن»:﴿إنَّ الله لَذو فَضْلٍ على النّاسِ ولكنّ أكثر النّاس لا يَشْكُرون﴾[6].

---

(١) الشعراء: ٦٥.

(٢) العنكبوت: ٢٤.

(٣) الأنبياء: ٨٨.

(٤) أي قوله تعالى:﴿وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ من الآية نفسها.

(٥) درّة التنزيل وغرّة التأويل: ١٥٣ - ١٥٥.

(٦) المؤمن: ٦١.

وقوله تعالى في سورة «يونس»: ﴿إن الله لذو فَضْل على النّاسِ ولكن أكثرهم لا يَشْكُرون، وما تكون في شأن﴾[1].

قال الإسكافيّ: للسائل أن يسأل فيقول: كيف أظهر «الناس» في موضع الإضْمار في سورة «المؤمن»، وقد أضْمَر في موضع الإظهار في سورة «يونس»؟

وهل كان جائزاً وقوع هذا موقع ذاك ؟

ويجيب الإسكافيّ عن هذا التساؤل إجابة مقنعة تدل على حس لغوي بلاغيّ عظيم فيقول:

«والجواب أن يقال: إنّ كل موضع يحتمل الإضمار لِقُرْب الذكر، ويحتمل الإظهار لتعظيم الأمر، وذِكْرُ أخصّ الأسماء المقصود بالتقريع والتفنيد، فإنه يحمل على ما يلائم الآيات المتقدمة له، ليكون قد جمع إلى صحّة المعنى واللفظ مشاكلة ما قبله من الآي.

فأما قوله في سورة «المؤمن»: ﴿ولكنّ أكْثَر النّاسِ لا يشكرون﴾ بعد قوله: ﴿إن الله لذو فضلٍ على الناس﴾، ولو قال: ولكن أكثرهم لا يشكرون، لقرب الذكر لكان من الجائز الحسن، فإنه محمول على الآيات التي قبله، وهي قوله: ﴿لَخَلْق السَّموات والأَرْضِ أكبرُ من خَلْق النّاس ولكن أكثر النّاس لا يَعْلمون﴾ [2]، وقال بعده: ﴿إنّ السّاعة لآتيةٌ لا رَيْب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ [3]، ثم جاء ﴿إنّ الله لذو فضل على الناس ولكِنّ أكثر النّاس لا يشكرون﴾ [4]. فأظهر ذكر الناس كما أظهر في الآيتين قبلها للمشاكلة والملاءمة.

وليس كذلك الأمر، في سورة «يونس» عليه السلام، لأن الكلام هناك بني على الإضمار في الآية المتقدمة.

---

(١) يونس: ٦٠، ٦١.

(٢) المؤمن: ٥٧.

(٣) المؤمن: ٥٩.

(٤) البقرة: ٢١٣.

ألا ترى أنه قال تعالى مُخبِراً عمّن يَدْخل من الظالمين النّار:﴿ ثُمّ قِيل للّذين ظلموا ذوقوا عذَاب الخُلْد هَل تُجْزَوْن إلاّ بما كُنْتُم تكْسِبُون﴾[1]، فانقضى هذا الكلام، واسْتُؤْنِف خبر عن القوْم الّذين بعث الله رسوله ﷺ إليهم وقال:﴿ويَسْتَنْبِئُوْنَكَ أحَقٌّ هو قُلْ إي وربّي إنّه لحقٌّ وما أنْتُم بِمُعْجزين﴾[2]، فأضمر ذكره في قوله:﴿ويَسْتَنْبِئُوْنَكَ أحَقٌّ﴾ ثم قال بعده:﴿ألا إنّ وَعْد الله حقّ ولكن أكْثَرَهُم لا يَعْلمون﴾[3]، فأضمر ما أضاف إليه «أكثر» ثم انتهى إلى قوله بعده:﴿إنّ الله لذو فضل على النّاس، ولكن أكْثَرَهُم لا يَشْكُرون﴾.

فاقتضى ما بنى عليه الكلام في هذه الآي أن يكون ما بعد الشرط بلفظ الإضمار كما كان ما تقدّمه.

فاختلاف الموضعين في الإظهار والإضمار لما ذكرنا»[4].

ونكتفي بما قدّمنا من دراسة ونماذج للتكرار في القرآن الكريم، ذلك التكرار القائم على التّوكيد، لنقوم بجولة أخرى حول ظاهرة العطف والترادف في القرآن الكريم.

* * *

(١) يونس: ٥٢.

(٢) يونس: ٥٣.

(٣) يونس: ٥٥.

(٤) درّة التنزيل وغرّة التأويل: ٤١٢، ٤١٣.